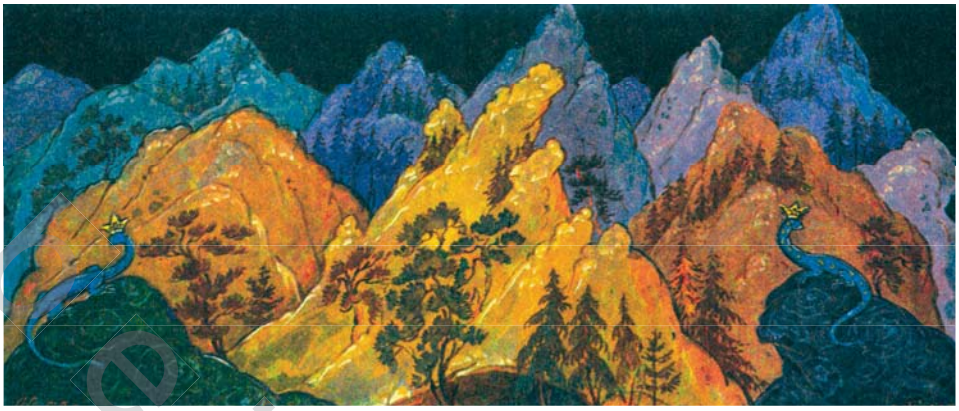

السحليتان

يقال إن منطقتنا كانت تحت إشراف خزينة المملكة، ولم يكن هناك أي مصانع قبل ذلك في هذه المناطق، فقد أقيمت المصانع مع سير الحرب. ومن المعروف أنه عندما تشرف الخزينة على شيء ما فإنه يتم إرسال الجنود. وعندها بنوا القرية التي سموها بالدرع الجبلي لحماية الطريق وتأمين أمان وسلامة التنقل فيه. وكان في منطقتنا في تلك الفترة ثروات كبيرة في الجبال، وكانت الخزينة تسعى للحصول عليها. وعندما اكتشفوا هذه الثروات، أحضروا الشعب العامل، وأقاموا المصنع، وجلبوا الألمان، ولكن العمل لم يجر كما يجب. فإما أن الألمان لم يرغبوا بالكشف عن الكنوز، أو أنهم لم يكونوا يعرفون مكانها، ولكنهم لم يكتشفوا كنوز المنطقة، بل اكتشفوا منجماً آخر ولكنه لم يكن يستحق هذا العناء، فقد كان منجماً ضئيل الثروات، ولا يقام المعمل على منجم كهذا، وعندها آلت منطقتنا إلى الإقطاعي العجوز الذي تحدثنا عنه وعن ولده في القصة السابقة.

وكان هذا الإقطاعي يتاجر بالملح قبل ذلك، ويعمل قليلاً في مجال النحاس، وكان لديه مصنع. وكان المصنع ينتج المصنوعات اليدوية البسيطة. وكان عند الإقطاعي مشرف ذكي، ما إن سمع بأن المصنع المعدني لدى الخزينة لا يعمل، توجه مباشرة لشرائه، فقال إن سيده الإقطاعي لديه مصنع وعمال ويستطيع تشغيل

Orfeikandil.com

المصنع في هذه المنطقة واستخراج المعادن.

وقد رفض أصحاب المعامل الأخرى والإقطاعيون أن يفكروا أصلاً في شراء هذا المصنع، فقد فكروا في أنفسهم: "طالما أن الألمان المختصون لم يستطيعوا تشغيل المصنع فلا جدوى من شرائه". وهكذا حصل الإقطاعي على المصنع بالمجان تقريباً.

ثم حضر الإقطاعي إلى المنطقة وجلب صناعه، ووعدهم وعوداً كثيرة إن عثروا على الثروات، وكان رجلاً ماكراً يستطيع خداع الشعب.

فقال لهم: هيا يا عمالي الأبطال، اعثروا لي على الثروات وشغلوا المصنع وسأكافئكم مكافأة كبيرة، فهل أنتم أسوأ من الألمان كي تفشلوا في هذه المهمة؟

وكان لديه لسان حنون يكذب كثيراً ويعد كثيراً، فقد نشأ على هذه الطريقة منذ شبابه.

ولم يكن العمال الشيوخ راغبين بالانتقال من أماكن سكنهم القديمة إلى هذه المنطقة الجديدة، ولكن هذه الكلمة بشأن الألمان أزعجتهم فلم يكونوا راغبين بأن يبدو أسوأ من الألمان.

وخاصة أن الألمان كانوا يتكبرون على عمالنا ويتعالون عليهم، فزاد انزعاج الشيوخ وذهبوا لتفحص المعمل، ورأوا أنه مجهز تجهيزاً أفضل من معمل الإقطاعي القديم، لأن الخزينة هي التي بنت هذا المعمل. ثم تجولوا في أرجاء المنطقة وفحصوا الجبال، وقالوا: إن الذين كانوا يعملون هنا في السابق حمقى.

فمن هذه المناجم وبفضل أفران ضخمة كهذه يمكننا أن نحول الكمية من المجموع العام إلى معادن. ولكن احرص على أن يكون الملح متوفراً لدينا كما في مناطقنا. فقد كانوا يعرفون حيلة ماهرة في هذه الصناعة، وهي صهر المواد الخام مع الملح، وكانوا يأملون النجاح في ذلك. فوثق الإقطاعي بصناعه وقال للألمان: إننا لسنا بحاجة لخبرائكم بعد الآن.

ولم يبق أمام الألمان إلا أن يحزموا حقائبهم، فعاد بعضهم إلى ديارهم في ألمانيا

oberkandi.com

والبعض ذهبوا للعمل في مصانع أخرى. ولكن فضولهم كان يدفعهم لمعرفة كيف سيدير العمال العاديون من الشعب معملاً كهذا، فطلب الألمان من ثلاثة أشخاص كانوا من الذين قدموا مع الألمان إلى المنطقة وقالوا لهم: ابقوا هنا وانظروا هل يوجد عند العمال خدعة ما، وعلى ماذا يأملون عندما يأخذون عملاً كهذا؟ فإن عرفتم أرسلوا لنا إشارة ونحن سندفع لكم.

وأحد هؤلاء الثلاثة كان شاباً طيباً، فأخبر الصناع بالأمر. وعندها قال العمال للإقطاعي: يفضل أن تجلب جميع العمال من مناطقنا ليعملوا في المعمل، وإلا ستحدث أمور لا ترغب بها. فإن وضعت شخصاً غريباً يمكن أن يكون مرسلاً من قبل الألمان، فمن مصلحتك ألا يعرف أحد أسرار مهنتنا.

فوافق الإقطاعي وكان في نيته أن يطبق خدعته الخاصة ولم يخبر العمال بها، فقد فكر في نفسه: "إن هذا من مصلحتي".

فقد كان الإقطاعيون الآخرون وأصحاب المعامل المحليون يستقبلون جميع الهاربين، بكونهم أرخص تكلفة ولا يدفعون للدولة ضرائب عنهم، فيمكنك أن تفعل بهم ما تشاء.أما الإقطاعي تورتشانينوف فقد كان يرى الموضوع مختلفاً، ففكر بالأمر على النحو التالي: إن جلب الهاربين يجلب المشاكل فيما بعد. فالهاربون يعلمون الآخرين على الهرب، والأفضل أن أجلب العمال من المناطق التي أملكها مع عائلاتهم؟ فأين سيهرب العامل من عائلته؟ وسينتشر الهدوء في المنطقة، وأسيطر عليهم سيطرة تامة، وعندها سنرى من سيربح أكثر.

وهذا ما حدث فيما بعد، وسار الأمر في معاملنا على قانون واحد. بينما بدأت المشاكل في معامل السادة الآخرين، وعندما سمع بذلك الإقطاعي قال لصناعه الشيوخ: شكراً لكم يا شيوخي لأنكم نصحتموني نصيحة مجدية، ولن أنسى لكم معروفكم أبداً، وسأجعل كل شيء يسير على نصيحتكم، وسأغلق المصنع في منطقتنا القديمة وأجلب جميع العمال إلى هنا، وأنتم ابحثوا لي عن عمال نشيطين وموثوق بهم وسأشتريهم من السادة الآخرين. افعلوا ذلك من أجلي وأنا سأكافئكم... وعاد

يكثر من وعوده الكاذبة كالعادة، ولم يبخل عليهم بالخمر والطعام، وجلس يحتفل معهم إلى طاولة الطعام ورقص معهم، وكان العمال شعباً طيباً، فصدقوه ونجح هو في خداعهم. فعاد الشيوخ إلى منازلهم وأخذوا يمتدحون الإقطاعي أمام عائلاتهم والمناطق الجديدة ويقولون: يا لها من مناطق واسعة رحبة، فيها نحاس كثير وثروات أخرى، وستكون المكاسب كبيرة، والإقطاعي رجل طيب، شربنا معه وأكلنا ولم يتكبر علينا، ويمكننا أن نعيش معه.

وكان رجال الإقطاعي الذين أرسلهم ليجمعوا الناس ويجلبوهم إلى منطقة المعامل يقومون بعملهم جيداً، فجمعوا أعداداً كبيرة واشتروا الكثير من العمال الجيدين من المصانع الأخرى، فقد كانت فترة إقطاع، وكانوا يبيعون الناس كما يبيعون الماشية. ولم يؤجلوا الأمر كثيراً ، فقاموا بنقل الصناع مع عائلاتهم إلى المناطق الجديدة، وقطعوا عليهم طريق الرجعة بشكل تام. بالإضافة إلى الذين اشتروهم فهؤلاء لا يستطيعون العودة أصلاً، وحددوا لهم أجرة النقل قيمة هائلة لن يستطيعوا تسديدها حتى مماتهم. ومن سيهرب من عائلته؟ وهكذا قيد الإقطاعي كل هؤلاء بيد من حديد. ولم يترك من العمال القدامى الذين كانوا في المصنع تحت إمرة الألمان إلا واحداً هو ذلك الشاب الذي أخبر الصناع عن مؤامرة الألمان. وكان الإقطاعي يرغب بالتخلص منه أيضاً، ولكن أحد الصناع حاول أن يوقظ ضمير الإقطاعي فقال له: هل نسيت أنه ساعدنا، علينا أن نعلمه المهنة، إذ يبدو عليه أنه شاب ذكي.

ثم سأل الشاب: ماذا كنت تعمل عند الألمان؟

كنت أطحن الخامات التي يستخرجونها من المنجم... أجاب الشاب.

إنه أمر بسيط، وهل تتقن أسرار عمل الألمان؟... سأل الحر في.

لا فلم يسمحوا لأحد بمعرفة أسرار عملهم، فقد كان لديهم عمالهم من الألمان لهذه الغاية، فعمالنا كانوا يجلبون الخامات بأمر من المشرف الألماني الذي يحدد لهم الكمية.

فاستمع إليه الحرفي وقال كلمته: سوف آخذك صانعاً لدي تتعلم مني، وأنت تخبرني ما رأيته مفيداً عند الألمان.

وهكذا وضعوا هذا الشاب الذي كان يدعى آندريه عند الأفران، فتعلم العمل سريعاً وأصبح لا يقل خبرة عن الصانع العجوز الذي علمه.

وبعد مرور سنتين تغير وضع المنطقة تماماً عما كان عليه خلال فترة إدارة الألمان، فقد بدؤوا يستخرجون كميات كبيرة من النحاس، وانتشرت سمعة هذه المناطق الغنية في أرجاء البلاد كلها، وزاد عدد العاملين كثيراً، وجميعهم من المناطق التي كانت فيها مصانع الإقطاعي القديمة. وكان عدد هائل من العمال يعمل عند أفران الصهر، وعدد أكبر يستخرجون الخامات من الجبل، وزاد طمع الإقطاعي تجاه المال، ومهما جلبت له من المال كان يجد أين يضعه، فزادت ثروته كثيراً، واشتد حسد جيرانه من الإقطاعيين فقدموا شكوى ضده بأن منطقة المصانع هي من أراضيهم، ويجب إعادتها إليهم. لكن الإقطاعي في تلك الفترة صار بالغ النفوذ، وأصدقاؤه من الأمراء والنبلاء الكبار، ففشل الإقطاعيون في خطتهم.

أما الشعب العامل فكان يعيش حياة قاسية وصعبة، وانزعج الصناع كثيراً لأن الإقطاعي خدعهم. فقد كان في بداية سير العمل يتودد إلى الصناع ويقول لهم:

اصبروا يا شيوخي، فالعاصمة موسكو لم تبن في يوم واحد، فما إن ننظم العمل في المصانع حتى تتحسن أحوالكم.

ولكنهم لم يروا أي تحسن في حالهم، فقد زادت أمورهم سوءاً، وصار الناس يموتون في المناجم من شدة التعب وقسوة العمل، وصار الجلادون يعذبون الصناع ويضربونهم على أسنانهم ويقولون: لا تأملوا خيراً من مساعدتكم للسيد في يوم من الأيام. فنحن أصبحنا نعرف أسرار المهنة أفضل منكم.

وأصبح الجميع في ذلك الوقت ينادون الإقطاعي بالسيد، وقد نسي الطريق إلى المصنع تماماً. فلم يبق لديه الوقت الكافي لذلك إذ كان المال كثيراً وكان عليه إحصاءه.

obeikandl.com

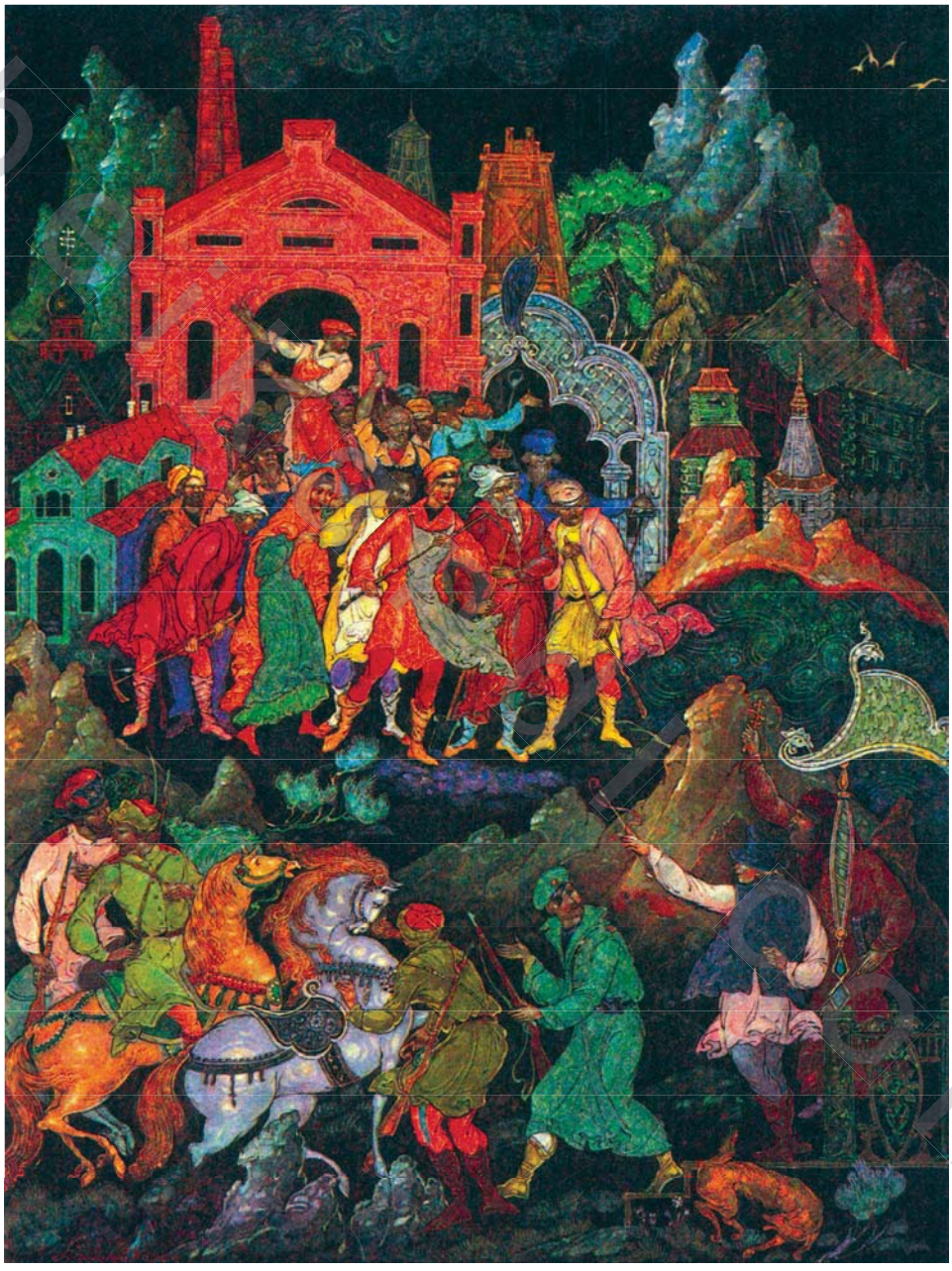

فقال الصناع الذين أقنعوا الناس بالانتقال إلى هذه المناطق: يجب أن نذهب إلى السيد نفسه، فصحيح أنه أصبح سيداً ولكنه رجل لبق، ويفهم أمورنا. ولا شك أنه لم ينس كيف احتفل معنا؟ فلنذهب ونحدثه عن أوضاعنا بصراحة.

وهكذا ذهبوا جميعهم إلى السيد، ولكن الخدم لم يسمحوا لهم بمقابلته. وقالوا لهم: إن السيد شرب قهوته وذهب للنوم. عودوا إلى أعمالكم واعملوا بجد.

فضاج الحشد وصاحوا: أي نوم هذا في وسط النهار، اذهب وأيقظه فليخرج إلى ناسه.

سمع السيد هذا الضجيج فخرج ومعه حشد من الحرس.

وكان آندريه أشجع الصناع وصاح بصوت عالٍ يقول: هل تذكر الملح؟ ماذا كنت لتفعل بدون الملح؟

كيف لي ألا اذكر الملح. اقبضوا عليه واجلدوه جيداً ورشوا عليه الملح، لتتحسن ذاكرته.

فصار الحرس يقبضون على بقية أفراد الحشد، وخاصة على الذين يشير السيد بإصبعه عليهم. ولكنه كان ماكراً جداً ولم يتصرف كما كان يتصرف مديرو خزينة الدولة، فلم يكن يقبض على الناس ويلحق بهم الأذى، كي لا يخسر اليد العاملة لديه. ورغم أنه لم يكن يذهب إلى المصنع إلا أنه كان يعرف عن كل عامل كل شيء وكل ما يجري في غيابه. فضرب الحرس الصناع الذين يتحدثون بصراحة، أما الذين لم يتحدثوا بشيء فلم يضربوهم. بل هددهم الإقطاعي قائلاً: احرصوا على ألا يلحق بكم نفس الأذى، في حال لم تجتهدوا في العمل.

فخاف هؤلاء من الجلد. وكان السيد يخاف من نقص العمال، فقد بدأ الصناع الشيوخ يموتون بعضهم من الهرم وآخرون من الجلد والعمل الشاق. وعندما توفي الصانع الذي علم آندريه حل آندريه محله، وكان في البداية يعمل جيداً وأظهر

نفسه عاملاً ماهراً، وكان خدم تورتشانينوف يسخرون منه ويلقبونه بالمالح. ولم يكن ينزعج من ذلك ويقول: اللحم المالح أقسى من غيره.

فوثقوا به كثيراً، وعندها استغل فترة غيابهم وصهر قفل فرنين فأغلقهما، فقبض عليه الحرس وقيدوه بالسلاسل في الجبل، وكان صناع الجبل يحبون آندريه فحاولوا بشتى الطرق تحريره، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك، فقد كان الحرس كثيراً.

وهل يستطيع الإنسان أن يصمد طويلاً في وضع كهذا قبل أن يصاب بالمرض؟ كما أن الحرس كانوا يبخلون عليه بالماء ويقولون له اشرب من ماء المنجم، وهي مياه تضر القلب. وكان مشرف المناجم يقول: انتظر قريباً ستموت وترتاح وسندفنك هنا بدون أي عناء.

وهكذا كانوا ينوون دفنه هنا، وكان آندريه يشعر بأن حاله ليست على ما يرام، وأنه ما يزال شاباً ولم تكن لديه رغبة بالموت، ففكر في نفسه:"عبثاً يتحدث الناس عن سيدة الجبل النحاسي، ويقولون إنها تساعد الناس، فلو أنها كانت موجودة لساعدتني في محنتي، فلا شك أنها رأت أنني مقيد هنا في الجبل. فما يرويه الناس خيال وهم يواسون أنفسهم به".

وما إن فكر بذلك حتى سقط من شدة التعب في مكان وقوفه وانتشر رذاذ الماء من حوله، وكان ماء المناجم بارداً، ولكنه لم يشعر بشيء، وظن أن نهايته قد أتت. ولم يدر كم بقي في هذا المكان، ولكنه وبعد فترة شعر بالدفء، وكأنه كان مستلقياً فوق العشب، ونسمة ريح لطيفة تلامس وجهه والشمس الدافئة تشرق فوقه، وكأنه في فترة حصاد.

وكان آندريه مستلقياً يفكر في نفسه:"لا شك أنني حلمت بالشمس قبل موتي". وازداد شعوره بالحر، ففتح عينيه، ولم يصدق نفسه لأول وهلة، فلم يكن في الجبل بل كان في غابة وفوق رأسه أشجار السرو العالية، وحوله العشب والحجارة الصغيرة، وعلى يمينه صخرة كبيرة كالجدار أعلى من أشجار السرو.

فصار آندريه يلمس جسمه بيديه ليتأكد إذا ما كان نائماً، وقطف القليل من العشب وحرك رجليه، ورأى أن الطين الذي عليهما هو طين المناجم ولكن لا أثر للسلاسل، ففكر في نفسه:"لا شك أنهم أخرجوني ميتاً وفكوا قيودي ووضعوني هنا وعدت أنا إلى الحياة هنا. فما العمل الآن؟ هل أهرب أم أنتظر؟ ولكن من الذي أتى بي إلى هذا المكان؟".

نظر خلفه ورأى عند الصخرة منديلاً فيه خبز، فانتعش آندريه وقال لنفسه: "لا شك أنهم أصدقائي الذين أخرجوني ولم يعتبروني ميتاً، لأنهم وضعوا لي الخبز والشراب. ولا شك أنهم سيأتون لزيارتي عندما يحل الظلام، وعندها أعرف كل شيء".

أكل آندريه الخبز كله حتى آخر قطعة وشرب كل الشراب واستغرب من أنه لم يسكر منه، بل كان شراباً يزيد من قوة الإنسان، وشعر بتحسن كبير بعد تناوله للطعام، وبأنه يستطيع أن يعيش دهراً في هذا المكان ولا يرغب بمغادرته ، ولكنه فكر في نفسه:"ماذا أفعل الآن؟ من الجيد أن يأتي أصدقائي، ولكن ماذا أفعل إذا جاء الحرس ووجدوني هنا؟ يجب أن أفحص هذا المكان، وليتني أستطيع أن أستحم، وأجد لنفسي ثياباً أخرى".

فصعد إلى الحجر ورأى أن المصنع قريب وأن الناس قريبون وكثيرون كالذباب، فخاف آندريه أن يشاهدوه من هناك، فنزل من فوق الحجر وجلس في مكانه القديم يفكر، ورأى سحالي تركض أمامه، وكانت السحالي كثيرة، ومن مختلف الألوان، واثنتان فقط مميزتان ولونهما أخضر، واحدة كبيرة وأخرى أصغر حجماً.

وكانت السحالي تركض فوق العشب وكأنها تلعب، ويبدو عليها المرح تحت الشمس. فجلس آندريه يراقب السحالي ولم يلحظ كيف جاءت غيمة كبيرة، وبدأ المطر يهطل. فاختبأت السحالي فوراً، و بقيت السحليتان الخضراوان فقط تلعبان وتركضان خلف بعضهما بعضاً بالقرب من آندريه. وعندما اشتد هطول المطر اختبأت السحليتان أيضاً. ورأى آندريه الأمر مسلياً، في حين أنه لم يختبئ من المطر،

فقد كان المطر دافئاً فخلع آندريه ثيابه وأخذ يستحم بماء المطر، وفكر في نفسه:"على الأقل سيزيل عني بعض الأوساخ". وبعد أن توقف المطر عادت السحالي تلعب، بينما شعر آندريه بالبرد، فقد حل المساء وغربت الشمس. ففكر آندريه: "يا ليت الإنسان كان بمقدوره الاختباء تحت الصخرة عند الحاجة ويجعلها بيته".

واستند بيده على الصخرة ولم يضغط عليها بقوة إلا أن الصخرة اهتزت وكادت تقلب على آندريه، فقفز آندريه مبتعداً وعادت الصخرة إلى مكانها.

"ما هذا... فكر آندريه – يا لها من صخرة ضخمة وتهتز بكل سهولة، فقد كادت أن تسحقني".فاقترب أكثر وتفحص الصخرة من جميع الجهات، ولم يجد فيها أي ثغرات، فقد كانت مغروسة عميقاً في الأرض، فضغط بيديه في مكان ثم ضغط في مكان آخر، ورأى أنها صخرة كأي صخرة أخرى، وفكر: "هل يعقل أن تتحرك الصخرة؟"

"لا شك أنني أصبت بالدوار بسبب المرض، وتراءى لي الأمر"... فكر آندريه وعاد للجلوس في مكانه القديم.

وبقيت السحليتان تركضان في نفس المكان، فلمست إحداهن نفس المكان الذي لمسه آندريه فاهتزت الصخرة، وانشقت على طولها، فدخلت السحلية فيه وعادت الصخرة إلى وحدتها. وركضت السحلية الأخرى نحو حافة الصخرة، واختبأت هناك، وكأنها تحرس شيئاً ما وتنظر إلى آندريه.

ثم عادت السحلية الثانية من خلف الصخرة، وتابعت السحليتان تلعبان بعض الوقت ثم هربتا بعد أن بينتا لآندريه مكان الدخول إلى الصخرة ومكان الخروج منها. ففكر آندريه في نفسه : "لأجرب مرة ثانية". فاستند مرة ثانية إلى الصخرة فمالت الصخرة عليه ولكنه لم يبتعد عنها، بل أخذ ينظر إلى الأسفل، فرأى سلماً قد بان في الأسفل، كالسلم في منزل السادة، فداس آندريه على الدرجة الأولى، وبانت السحليتان أمامه تدلانه على الطريق، وتابع النزول واستند بيده إلى الجدار وفكر في نفسه: "إذا أبعدت يدي عن الصخرة يمكن أن ينغلق الباب وألا يفتح مرة ثانية "

فوقف حائراً، ونظرت إليه السحليتان وكأنما تنتظران شيئاً ما. ففكر آندريه: "لا شك أن سيدة الجبل النحاسي تختبر شجاعتي، فاختبار الشجاعة عندها لديه الأولوية دائماً.

فاستجمع شجاعته وسار سريعاً وانغلقت الصخرة وراءه، وأضاء المكان من حوله وكأن الشمس كانت داخل الصخرة، وأصبح كل شيء واضحاً أمامه.

نظر آندريه أمامه ورأى بابين مزينين بالنقوش الحجرية، وعلى اليمين باب صغير، فتوجهت السحليتان إليه، فتح آندريه هذا الباب ووجد فيه حماماً روسياً بخارياً على أصوله، ولكنه لم يكن من الخشب بل من الحجر، وكانت كل الأغراض الضرورية موجودة هناك، ففرح آندريه كثيراً وأراد أن يجفف ثيابه أولاً فوق الأحجار الساخنة ولكن ما إن خلع ثيابه حتى اختفت الثياب وكأنها لم تكن، فنظر خلفه ورأى فوق المقعد ثياباً جديدة نظيفة وكثيرة من جميع الأصناف، من ثياب السادة وثياب الإقطاعيين وثياب العمال وكلها جديدة. فلم يطل آندريه التفكير في الأمر بل سارع في الاستحمام ثم جلس يرتاح قليلاً، وارتدى ثياب العامل التي اعتاد عليها، وخرج من الحمام، ورأى السحليتان تنتظرانه عند الباب الكبير.

فتح الباب الكبير ورأى أمامه صالة ضخمة لم ير مثلها في أحلامه، وكانت جدرانها حجرية ومزينة بالنقوش الفاخرة، وفي وسط الصالة طاولة مليئة بالطعام والشراب من جميع الأصناف. وكان آندريه جائعاً جداً فلم يفكر كثيراً وجلس يتناول الطعام، وكان الطعام عادياً ولكن الشراب كان غريباً، فقد كان شراباً قوياً ولكنه لا يسكر. شبع آندريه وكأنه كان خلف طاولة احتفال، ثم انحنى للسحليتين وقال: شكراً لكما يا سيدتيّ على هذا الطعام اللذيذ.

وأومأت له السحليتان بسرور، ثم قفزت السحلية الصغيرة من فوق المقعد وركضت، فتبعها آندريه، واقتربت السحلية من السرير وتوقفت وكأنها تقول:"تفضل ونم على السرير"، فاستجمع آندريه شجاعته واستلقى على السرير ونام، وكان السرير فاخراً، فذهب الشاب في نوم عميق فوراً، وعندها أطفأت الأنوار.

МЕДНЫЙ ЗАВОДЪ
ТУРЧАНИНЪ

أما في منطقة المناجم فقد جاء المشرف في الصباح ليرى إن كان السجين ما يزال حياً أم مات، فوجد القيود الحديدية لا أكثر، فأصابه القلق وصار يتساءل: إلى أين ذهب السجين؟ وماذا أفعل الآن؟

وبعد أن تفحص المكان ولم يجد أي علامات لآندريه، لم يدر ماذا يفعل، إذ لا يستطيع أن يخبر الإدارة، لأنه هو الذي سيتحمل المسؤولية، وسيقولون إنه لم يحرس السجين جيداً. فوصل أخيراً إلى فكرة أن يهدم سقف المكان، فلن تبحث الإدارة كثيراً في الأمر، وهكذا فعل ثم ذهب وأخبرهم قائلاً: لقد حدث انهدام في مكان السجين، ويبدو أنه مات هناك. ولا داعي للبحث عنه فالسقف هناك ليس متيناً، والميت لا يهمه أين يدفن.

فرأى العمال أن الأمر غريب شيئاً ما ولكنهم صمتوا ولم يتكلموا بل فكروا في أنفسهم: "لا شك أنه تعذب كثيراً، وليس باستطاعتنا فعل شيء له".

وهذا ما نقلته الإدارة للسيد فقالوا: لقد سحقت الحجارة ذلك المالح الذي صهر أقفال الأفران.

ولم يضيع السيد فرصة المكسب في هذه الحالة أيضاً وقال: إن الرب نفسه عاقبه، يجب أن نخبر القساوسة عن هذه الحادثة، ليدعوا الناس إلى طاعة السادة.

فنشر القساوسة الخبر وعرف الجميع قصة آندريه. وأشفقوا عليه وقالوا: لقد كان شاباً جيداً، ولم يبق الكثير من أمثاله.

في حين كان آندريه نائماً وهو ينعم بالدفء والراحة بعد أن استحم وتناول طعامه، فنام يوماً ويومين حتى شبع نوماً، وعادت إليه صحته، وكأنه لم يصب بالمرض ولم يسجن فترة طويلة، فنظر ورأى الطاولة من جديد مليئة بأصناف الأطعمة والسحليتان تجلسان وتنظران إليه.

شرب آندريه وأكل حتى شبع ثم انحنى للسحليتين شاكراً وقال: لقد آن أوان تشكر الإقطاعي تورتشانينوف على الملح الذي رشه على جروحي، ويجب أن نهديه هدية تجعله يعطس حتى تدمع عيناه.

فقفزت السحلية الصغيرة من فوق المقعد وركضت، وسار آندريه خلفها، فقادته السحلية إلى الباب الآخر، فدفع آندريه الباب ورأى سلماً يقود إلى السقف، وفي السقف مقبض نحاسي، فأدار آندريه المقبض وانفتح المخرج، فخرج آندريه من الصخرة ورأى أن الوقت اقترب من المساء والشمس قد غربت، ففكر في نفسه: "هذا ما أريده، فلأذهب في هذا الظلام إلى المناجم، لعلني أرى أحداً وأسأله كيف هي الأمور في المصانع".

فسار على مهل وبحذر كي لا يراه الحرس، واقترب من المناجم واختبأ خلف الأحراش، فرأى أشخاصاً كثيرين عند المناجم، ولكنه لم يجد الفرصة المناسبة، فليسوا هؤلاء من أصدقائه، وآخرين يعملون تحت نظر الحراس، وهنا ابتعد أحد العمال عن المجموعة واقترب من المكان الذي اختبأ فيه آندريه، وكان الظلام قد اشتد في ذلك الوقت، وكان العامل شاباً بسيطاً، ولكنه كان موثوقاً به، وكان يعمل في السابق كما عمل آندريه عند الأفران ثم تم نقله إلى المناجم. فقال له آندريه بصوت خافت:

ميخائيل اقترب مني.

فاقترب ميخائيل في البداية ليعرف من يناديه، ثم توقف وسأل: من يناديني؟

تعال أقول لك اقترب.

فاقترب ميخائيل أكثر وبدا عليه الخوف، فخرج آندريه عندها من خلف الأحراش، كي لا يشك ميخائيل فيه، فصرخ ميخائيل خائفاً وهرب. وحدث أن الصدفة أوصلت امرأة إلى نفس المكان فرأت آندريه وبدأت تصرخ بصوت عالٍ: الميت.. لقد رأيت الميت.

وميخائيل يصرخ أيضاً: لقد رأيت آندريه المالح، رأيته كما هو خلف تلك الأحراش.

فانتشر القلق بين الناس، وركض بعضهم إلى الإدارة يخبرونهم. وآخرون قالوا: يجب أن نرى ما الأمر.

وساروا حشداً كبيراً، فشعر آندريه بالخطر، وفكر في نفسه: "لا شك أنني إذا أظهرت نفسي سيقتلونني من الخوف". فابتعد إلى الغابة، وخاف الحشد التعمق في أعماق الغابة، فوقفوا قليلاً عند الأحراش ثم عادوا إلى منازلهم.

فدار آندريه حول المنطقة وسار ليلاً إلى المصنع مباشرة، فرأوه هناك وخافوا. فتركوا كل شيء وهربوا كل في اتجاه، أما الجلاد فقد صعد من شدة خوفه إلى سقف المنزل، فأنزلوه في اليوم التالي من فوق السقف فاقداً وعيه. وتمشى آندريه قليلاً أمام الأفران، ثم أغلق الأفران جميعها بأن صهر أقفالها وسار إلى الإقطاعي.

فسمع الإقطاعي بوجود الميت في المنطقة، وأمر بإحضار القساوسة، ولكن الوقت كان متأخراً فلم يستطيعوا إحضارهم، وعندها حبس الإقطاعي نفسه في البيت ومنع الخدم من فتح الباب لأحد. فرأى آندريه أنه لا سبيل لإيجاده، فعاد إلى الصالة المخصصة له في الصخرة، وقال في نفسه: "انتظر سأذكرك بالملح يا إقطاعي".

وفي اليوم التالي انتشرت الفوضى في المصانع فجميع الأفران كانت مخربة، فأمر السيد عماله بإخراج الميت ودفنه جيداً وفق جميع القواعد كي لا يظهر مرة ثانية.

فأزالوا الحجارة ولم يجدوا الجثة تحتها، بل فقط القيود الحديدية التي لم تكن محطمة بل كاملة. فاستدعوا المشرف وسألوه، وحاول المشرف أن يلقي اللوم على العمال، ثم روى للسيد كيف كان الأمر. وما إن أخبر السيد حتى بدأ الأخير يصرخ ويهدد: اقبضوا عليه إن كان حياً.

وأمر جميع حراسه بتفتيش الغابة، ولم يعلم آندريه بهذا الأمر فخرج مساءً إلى الجبل وجلس عند الصخرة يفكر، كيف له أن يقابل أصدقاءه، وكانت لديه فتاة يحبها ويريد رؤيتها، فقال في نفسه: "لا شك أنها صدقت أنني مت، فهل بكت علي يا ترى؟".

obeikandl.com

ولسوء حظه أن عدة نساء كن يمشين في الغابة في ذلك المساء،عائدات من الحصاد، ومررن بالقرب من الصخرة. فسمع آندريه كيف كن يغنين الأغاني، ثم سمع حديثاً دار بينهن، فقالت إحداهن: هل رأيت حالة مارينا منذ أن سمعت بخبر آندريه وأنه حي.

فردت أخرى: وكيف لا يكون حياً، إذا قام بتخريب جميع الأفران.

- وماذا فعلت مارينا؟ فلا شك أنها قررت البحث عنه؟

إنها غبية، فقد تحدثت إليها كثيراً البارحة، ولكنها لم تستمع إلى العجائز من حولها. فهي تخشى أن يأتي آندريه إلى نافذتها، وتقضي وقتها في البكاء.

إنها غبية ولا تستحق شاباً كآندريه، يا ليته كان عندي مثله لما خفت منه ولو كان ميتاً.

سمع آندريه هذا الكلام، وفكر في نفسه: "ليتني أستطيع أن أبعث لمارينا مرسالاً مع هؤلاء النسوة".

فسار باتجاه الأصوات، ورأى فتيات يعرفهن، ولكنه لم يستطع الظهور أمامهن. فقد رأى أن الناس كثيرون وهناك أولاد وأطفال. فكيف سيظهر؟

فنظر مطولاً ثم عاد أدراجه، وجلس في مكانه القديم حزيناً. ويبدو أنه خلال سيره رآه أحد الخدم عند السيد فركض وأخبر البقية فجاءوا وأحاطوا بالصخرة وهم يضحكون، فأمر كبيرهم: اقبضوا عليه.

فرأى آندريه أنهم أحاطوا به من جميع الجهات، فضغط على الصخرة وابتلعته الصخرة وكأنه لم يكن. فاقترب الخدم ولم يجدوا أحداً. فأين اختفى؟ وأخذوا يضغطون بكل ثقلهم على الصخرة، ولكن إزاحتها من مكانها كانت مستحيلة، ففكروا قليلاً وغمرهم الخوف من جديد.

لا شك أنه ميت فعلاً طالما أنه دخل الصخرة.

فركضوا إلى السيد يخبرونه عن الأمر، فأخذ السيد يرتجف من شدة الخوف. وقال: علي أن أسافر إلى العاصمة لأمر ضروري، وأنتم هنا حاولوا القبض عليه بدوني، فإن لم تقبضوا عليه سأعاقبكم بشدة.

وبعد أن هدد ركب حصانه وانطلق، فلم يدر الخدم ماذا يفعلون، وقرروا أنه عليهم حراسة الصخرة، وكان آندريه يفكر بدوره داخل الصخرة: "ما العمل؟ هل أجلس بلا عمل، وبالمقابل لا أستطيع الخروج؟ فلأحاول الخروج ليلاً وعندها أرى ماذا أفعل".

وأراد أن يأخذ القليل من الطعام معه، فلم ير السحليتين، فشعر بالحرج وقال: "حسناً سأحاول أن أبقى بلا طعام، فإن بقيت حياً يمكنني إيجاد الخبز".

ثم نظر إلى الصالة الجميلة، ومتع نظره بها وقال: شكراً لهذا المنزل، سأذهب الآن إلى منزل آخر.

وهنا ظهرت أمامه سيدة المنزل كما يجب أن يحدث، فوقف الشاب مندهشاً من شدة جمالها. فقالت السيدة: لا طريق للأعلى بعد الآن، بل هناك طريق آخر تسير فيه، ولا تقلق بشأن الطعام، فقد استحققت أن تحصل على ما تريد، وسيقودك الطريق إلى حيث يجب أن تذهب. ادخل في تلك الأبواب، ولكن شرط ألا تلتفت وراءك، اتفقنا؟

حسناً اتفقنا... رد آندريه – وشكراً لك على كل شيء.

ثم انحنى لها وسار باتجاه الأبواب، وهناك رأى أمامه فتاة تشبه السيدة تماماً، ولكنها أشد جمالاً، فلم يتحمل آندريه ألا ينظر خلفه، فالتفت ليرى تلك الأخرى؟ فهددته بإصبعها وقالت: نسيت وعدك أليس كذلك؟

نعم نسيت، فلم يبق في رأسي عقل.

يا لك من مالح، فأنت رجل بكل معنى الكلمة، وأمام الفتيات ضعيف، فماذا أفعل بك الآن؟

obeikandl.com

إنها إرادتك افعلي بي ما شئت.

حسناً سأسامحك لأول مرة، ولكن لا تلتفت مرة ثانية، لأن الأمر سيسوء عندها.

فسار آندريه وفتحت الأخرى الأبواب أمامه وامتدت الصالات المضاءة وبدا وكأن لا نهاية لها.

فهل التفت آندريه مرة أخرى أم لا؟ لا أعرف، لأن الشيوخ لم يخبروني بذلك. ولكن منذ ذلك الحين لم يروا هذا الشاب في مناطقنا، ولكنهم بقوا يتذكرونه، فقد أرعب الإقطاعي وأزعجه.

أما خدم الإقطاعي فقد بقوا يحرسون الصخرة ليلاً نهاراً، وكان الناس يذهبون قصداً لرؤية هؤلاء الحمقى، ثم ملوا وأخذوا يطلقون النار على الصخرة، وجلبوا العمال، فحطموا الصخرة، وكان السيد قد استجمع قوته وجاء يؤنبهم وقال:

لقد أضعتم وقتاً طويلاً وأنتم تحرسون هذه الصخرة في حين حدثت المشاكل والخسائر في المصنع فعودوا إلى أعمالكم هيا.

obeikandl.com